فن الكتابة

أو

كيف ندرس فن الانشاء (١)

اقتباس وترجمة

« ليست الصعوبة — التي تعترض الكاتب أو الشاعر — فى أن يكتب أو ينظم فى أي موضوع شاء ، بل الصعوبة كلها فى أن يقول ما يعنيه بالضبط فى هذا الموضوع »

هكذا يقول بعض كتاب الانجليز وأساطين مدرسى الانشاء ، وقد استشهدنا بهذا القول فى مقدمة ديوان ابن الرومى حين عرضنا للكلام على دقته التى امتاز بها فى شعره ، كما استشهدنا بقول الشاعر العربى :

«وفضاني فى القول والشعر أنني ... أقول على علم ، وأعلم ما أعنى»

وهذه هى الغاية الجليلة التى يجب أن يفوّق اليها كل رام سهامه ويجعلها نصب عينيه وحفل أذنيه . وهى الغاية التى نريد أن نبين الطريق المؤدية اليها ، تاركين الكلام الى أساتيذ التربية وكبار المنشئين الذين قضوا حياتهم فى تدريس هذا الفن الجليل ، ملخصين آراءهم حينا ومقتبسين بعض عباراتهم حينا آخر ، رغبة فى الاختصار الذى تحتمه علينا هذه المقالات الموجزة ، وإلى القارئ خلاصة هذه الآراء :

تمهيد

أول ما نرمى اليه بتأليف هذا الكتاب هو أن نرسم لطالب الانشاء خطة واضحة المحجة و نبين له منهجا يترسم خطاه ليصل الى غايته رأسا ، دون أن يضيع

(١) فصل مختار من كتاب للمؤلف بهذا العنوان لم يطبع بعد .

وقته عبثا فى تمارين ، لانقول : إنها عديمة الفائدة فحسب ، بل إنها ـ على الحقيقة ـ عائق يقف حجر عثرة فى طريقه ويحول دون نجاحه فى الكتابة الصحيحة التى ينشدها .

أما التمارين التى نعنيها بهذا النقد فهى تمارين الإعراب وتصريف الكلمات وحل الجمل حلا لفظيا لاطائل تحته ، فهذه ـ فى نظرنا ـ وسيلة عقيمة بيّنه الخطل محققة الفشل ، وهى كالمستنقع الضحضاح المملوء بالوحل ، لايستطيع السالك أن يسبح فيه أو يمشى .

ولبعض المؤلفين ولع شديد بإرهاق النشء بما يكدسه أمامهم من القواعد النظرية التى يحاول أن يقررها فى أذهانهم ويجعل منها ضابطاً لامعدى للطالب عنه ولا مفر من اتباعه ، وليس ذلك من همنا فانترك النظريات التى يستحيل اتباعها عمليا مولين وجهنا شطرا آخر ، فنعمل على أن نثبت أقدامهم ونمكنهم من الكتابة التى تجمع بين الرشاقة والقوة ، وتكون ـ الى ذلك ـ خالصة من الشوائب دقيقة التعبير حسنة الأداء

وللوصول الى هذا طريق عملية واحدة هى الاكثار من التمارين الانشائية ، الى حد قد يظنه البعض غير ضرورى أو يرى فيه إسرافا لاداعى اليه ـ إسرافا فى الجهود وإسرافا فى الزمن ـ ولكن سلوك هذه الطريق الطويلة ضرورى لامناص منه ، وليس طول الطريق دليلا على أن الطريق الأخرى ـ التى هى أقصر منها ـ خير منها .

ألاترى الى طالب العود أو البيانو ؟ قل لى بربك : كم عاما يقضى فى سبيل غايته ؟ وكم من الزمن يمر عليه حتى يصل الى درجة الإتقان أو ـ على الاصح ـ حتى يدنو من درجة الإتقان ؟

وإذا كان ذلك كذلك ، فما بالك بمن يتطلع إلى إتقان الكتابة والتصرف فى فنون القول ؟ مابالك بمن تطمح نفسه الى مثل هذا المطلب الوعر ؟ وكم من السنين يجدر به أن يقضيها حتى يصل إلى غايته ؟ « ومن يخطب الحسناء لم يغلها مهر »

مابالك بمن يريد أن يمتلك ناصية البيان ويسمو بأسلوبه عن الركاكة واللبس والتعقيد وما إلى ذلك من عيوب الكتابة وصعاب اللغة ، ويجمع – الى ذلك – ذوقا فنياً عالياً .

أضف الى ذلك أن من يريد أن يتعلم فن الانشاء ، إنما هو – على الحقيقة – يريد أن يتعلم كيف يفكر ، فهو فى بحثه عن الكلمة الصحيحة الفصيحة وتخيره الأسلوب الدقيق الأداء الموفق التعبير ، يسلك كثيراً من شعاب القول وفنونه ويمر بمنعرجاته ومنعطفاته الكثيرة باحثا منقبا عن الفكرة المنشودة . متخيرا من بينها أمثل طريق ، وهو بهذا يتعلم كيف يتعرف الخطأ والصواب ويميز بين الحسن والأحسن ، وكلما سار فى هذه الطريق تفتحت أمامه كنوز اللغة وفرائد المعانى ، وكان مثله كمثل « سول » ذلك الفتى الذى تحدثنا الأساطير ، أنه ذهب يبحث عن جحوش أبيه وعيرانه فظفر بملك عظيم .

تمارين الانشاء

أما تمارين الانشاء فيجب ان تكون قصيرة ، وأنا ألحف فى الرجاء أن يعنى حضرات المدرسين بهذا الامر كل العناية وأن يجتنبوا ذات المقالات الطويلة بل أن يحرموها على طلبتهم بتاتاً ، ذلك أنها منهكة لقواهم مضيعة لوقت المدرسين بلاطائل ، وهى – إلى ذلك – تعود الطلبة أن يجمحوا كثيراً ، وربما

تركوا جوهر الموضوع ـ كما يحدث ذلك أحيانا ـ وبعدوا عن أساسه، وشر عيوب الكتابة الشطط .

أضف الى ذلك أن التطويل يعوّد الطالب الإهمال فى صوغ عباراته بدقة كما يعوده الإهمال فى تخير الألفاظ ، فلا ترى له إلا كتابة مفككة الأوصال ركيكة التعبير ، على حين أنه لو كتب موضوعا قصيراً لا يتجاوز عشرة أسطر ـ أحسن تنسيقها وعنى بأدائها خير أداء ـ لكان ذلك أجدى عليه وأعود بالفائدة من كتابة موضوع مسهب فى عشر صفحات قد رصفت فيه الكلمات رصفا ـ بلا روية ولا إحكام ـ ويجدر بالمدرس أن يرشد الطالب إلى الطريق التى يسلكها ثم يدع له وحده تخير الجمل وصقل الأسلوب .

أما الطالب فهو خليق أن يتخير من الموضوعات والمعانى ما يلائم تفكيره ويتناسب مع ميوله ومداركه حتى يجيد أداءه

ويجدر بالمدرس أن يصحح التمارين الانشائية فى الفصل ـ أمام التلاميذ ـ فإن ذلك أعون على توسيع مدارك الطالب وتنمية عقله ، ثم ليقرأ الطالب موضوعه بصوت عال وتبدأ المناقشة بين المدرس والطلبة فى نقط الموضوع وتبيان وجهات الخطأ والصواب فيه ، فتتاح للطلبة فرصة الانتقاد والأخذ والرد والمناقشة ويمتلىء الدرس حياة ونشاطا ويتعود الطلبة الكلام والمحاجة منذ حداثتهم .

حوار شائق بين طالب ومدرس

طالب ناشيء يريد أن يصل إلى درجة عاليـة فى فن الإنشاء ويصبح قادراً على التعبير عن أغراضه بعبارة بليغـة وأسلوب دقيق ، وقد امتلأت نفسه بهذه الرغبة ـ التى تماسكت عليه مشاعره ـ فلم يجد أمامه من يسترشد به فى معرفة الطريق التى يسلـكها للوصول إلى تحقيق غايته ، غـير أستاذه ؛ ولم يكد يوضح لأستاذه غرضه حتى دار بينهما الحوار التالى :

الطالب ـ : « أريد أن أصل الى درجة عالية فى الإنشاء وأن أصبح قادراً على الـكتابة بأسلوب بليغ وعبارة مختارة ، فما هى أقرب الطرق إلى ذلك ؟ »

المدرس ـ : « إن غايتك التى ترمى إليها غاية نبيلة ، ومطلبك الذى تسعى إلى تحقيقه مطلب سـام جليل ، فليس أبهج للنفس من القدرة على أداء الأغراض والتعبير عن خوالج النفس بعبارة صحيحة بليغة ، وسترى من إحكام لغتنا العربيـة ووفرة أساليبها ودقة تعبيرها مايساعدك على إدراك طلبتك ، فلقد تكون لغتنا أغنى لغة فى العالم كله ! »

الطالب ـ : « ألا تنصح لى بقراءة شيء من الـكتب التى أُلّفت فى هذا الفن ؟ »

المدرس ـ : « كلا كلا ! لاحاجة بك إلى قراءة شيء من ذلك أبداً ، أو ـ على الأقل ـ لاحاجة بك فى هذه المرحلة الأولى التى تجتـازها إلى قراءة تلك النظريات والقواعد البيانية والبلاغية وما إليها !

إن كل ماتحتاجـه الآن هو المرانة على الـكتابة والتعبير عن أغراضك بأسلوب عربى واضح ، ولك أن تمارس ذلك فى أى يوم تشاء أو فى كل يوم .

وأحب أن أقص عليك تلك الحـكاية المشهورة التى يروونها عن سيدة

فرنسية كانت مربية لأولاد «لويس الرابع عشر» ملك فرنسا العظيم ، لترى فيها المثال الذى أريد أن أنبهك اليه . وخلاصة هذه القصة أن تلك المربية سألت ولداً من أبناء لويس الرابع عشر ـ هو الدوق دى مين ـ أن يكتب الى أبيه كتاباً . فقال لها مدهوشا ـ :

«أمثلى يستطيع ذلك وأنا لا أعرف كيف أخط جملة واحدة منه ؟ »

فقالت له المربية ـ : « ألست تفكر فى أبيك أحيانا ؟ »

فقال ـ : « أفكر فيه كثيرا ، وأحزن لغيبته الطويلة عنى أشد الحزن ! »

فقالت له ـ : « هذا حسن ! هذا حسن ! اكتب له ذلك إذن !

ولكن خبرنى ، أهذا هو كل ماتفكر فيه ؟ ألا تشعر بشىء آخر ؟ »

فقال ـ : « نعم ؛ أود أن أراه وسأكون سعيداً جداً إذا عاد إلينا من سفره ! »

فقالت له ـ : « هاهو كتابك قد تم إنشاؤه ، ولم يبق عليك إلا أن تكتب له ذلك وتجعل له افتتاحاً وختاماً ؟ »

فقال لها متعجباً ـ : « ما كنت أحسب أن كتابة الرسائل بمثل هذه السهولة ! فقد كنت أتخيل أن من يريد كتابة رسالة جدير أن يملأها بألفاظ لغوية وجمل منمقة لا يقدر على الإتيان بها إلا كبار البلغاء وأساطين الكتاب ! »

فقالت له ـ . « لا حاجة بك الى شىء من هذا ، وليس عليك إلا أن تكتب ماتشعر به بأسلوب واضح وكلمات سهلة بسيطة ! »

* * *

ولعلك تتبين من هذا المثال الخطة التى أريد أن أرسمها لك لتنتهجها

فى فن الانشاء ؟ »

الطالب - : « ومارأى سيدى الأستاذ فى القواعد النحوية والتمارين الصرفية وماإلى ذلك ، ألست مضطراً الى معرفتها لمراعاتها أثناء الكتابة؟ »

المدرس - : « كلا ، لست فى حاجة الى ذلك كله . فستعرف الشىء الكثير منها أثناء الطريق . وأنت - إذا ملأت ذهنك بتلك القواعد فى هذه المرحلة وشغلت نفسك بها - كان مثالك كمثل من يود أن يتعلم المبارزة فيذهب الى قاعة التمرين حيث يقلدونه حساماً فيترك العناية بماجاء لأجله من التدريب إلى الاشتغال بالنظر الى حسامه وكيفية وضعه ، وربما عثر به أثناء التفكير فيه .

يجب أن ينصرف عقلك - أثناء الكتابة - الى الموضوع الذى تكتبه وألا يبقى فى ذهنك أى فراغ للتفكير فى قواعد النحو والصرف والبيان حتى لا يشغلك ذلك عن متابعة المعنى وتقصيه وتخير الأسلوب الملائم الذى يؤديه أحسن أداء »

الطالب - . « ولكننى - إذا فعلت ذلك - وقعت فى أغلاط لغوية ونحوية ! »

المدرس - : « قد يكون هذا ، ولكنك - بلا شك - ستقرأ موضوعك بعد أن تتم كتابته ، وهذه فرصة حسنة نعنى فيها بتصحيح ماوقعت فيه من الأخطاء ! أماوقت الكتابة فيجب أن ينصرف عقلك إلى التفكير فى الموضوع الذى تتصدى للكتابة فيه ! »

الطالب - : « ومارأى سيدى الأستاذ فى تمارين الاعراب والتطبيق - وماإلى ذلك - أليست تساعدنى على التفوق على أقرانى فى الإنشاء ، ألا ترى

فيها مرشداً لى ؟ »

المدرس — : « بل أرى فيها شر مرشد ياولدى ، ويجدر بى أن أوضح لك ماأعنيه فى هذه النقطة الدقيقة ، وأن أجلّى لك وهما يقع فيه كثير من أقرانك :

إن فائدة هذه التمارين — الخاصة بالإعراب والتطبيق ونحو ذلك — تنحصر فى شىء واحد ، هو تدريب عقلك على تعرف سر تركيب الجمل وموقع الفاعل والمفعول من الجملة . الخ

ولكن الانشاء شىء آخر غيرهذا كله ، شىء يخالف ذلك كل المخالفة ، وأوجز ماأقوله لك إن عملك فى الإنشاء هو عكس عملك فى الإعراب وتطبيق القواعد النحوية الخ .

ربما خطر ببالك أن التفوق فى النحو — الذى يكسبك خبرة صحيحة بمواقع الكلمات من الجمل — سيكسبك نفس هذه الخبرة فى إنشاء موضوع ما ، وهذا وهم يكذبه الواقع وتنقضه التجربة ، فليست هذه القواعد عديمة الجدوى فى تفوقك فى الإنشاء فحسب ، بل هى — إلى ذلك — أكبر عقبة تعترض سبيلك وتعوقك عن التقدم فى هذا الفن والنجاح فيه .

وماظنك برجل يريد أن يعلمك المشى مثلا ، فلا يحفل بتدريبك عليه ، بل يدع ذلك جانباً ؛ ويبدأ بتعريفك كل دقيقة وجليلة من عضل الساق وسر تركيبها وعمل كل منها أثناء السير وتوقف تحريك تلك العضلة على تحريك هذه ، الى آخر ذلك البحث المضنى الشاق الذى لا يعنى به إلا المختصون من الأطباء بدراسة التشريح .

إنك تستطيع أن تدرك — بأدنى تأمل — أنك فى غير حاجة إلى تفهم كل

هذه المباحث العويصة وأنك في حاجة إلى التمرين — قبل كل شيء — وأن التدريب وحده هو خير الطرق لتعويدك المشي ، وحسبك إذا شئت — أن تعرف أسماء العضل الرئيسي في الساق تاركا بقية التفاصيل إلى الأطباء المختصين .

ولقد تعلم الناس المشي — منذ آلاف السنين — قبل أن يعرفوا أسماء هذه العضل ، ولم يكلفهم ذلك أكثر من محاكاة غيرهم وتقليدهم في ذلك .

واعلم يا ولدي أن المشي والكلام والكتابة غاية في اليسر ، وأن كلا من هذه الأشياء الثلاثة لا يكتسب بغير المرانة ، وأن على هذه المرانة وحدها يتوقف سر النجاح فيها جميعاً .

إن في هذه الكتب — التي يضعها مؤلفوها لتعليم الانشاء — كثيراً من العجائب إن لم أقل السخافات ، مثال ذلك :

اكتب ثلاث جمل في كل منها فعل يتعدى إلى مفعولين أو ثلاثة مفاعيل أو نحو ذلك ، أنشىء ست جمل مبتدأة أولاها بحرف ألف وثانيتها بحرف باء الخ .
هذا نظام غير طبيعي وهو نوع من التمارين الانشائية المتكلفة التي لا تنطبق على حاجتنا في أداء أغراضنا ومعانينا في الحياة العملية ، فإن أول شرط في الكتابة أن تكون طبيعية كالكلام والمشي ، ولا جرم أن الانسان — إذا تكلم أو كتب — لا يُعنى بأمثال هذه السفاسف ، وهو لا يتكلم — أو يكتب — إلا معبراً عما يدور بخلده من المعاني والأغراض ، ومن ثم تواتيه الكلمات والجمل — عفو الخاطر — حتى يتم موضوعه دون أن يحفل مطلقاً بجعل هذه الجملة قصيرة أو طويلة ، فيها أفعال تتعدى الى مفعول واحد أو ثلاثة مفاعيل ، مبتدأة بحرف جيم أو حرف زاى ، الى آخر هذه الصغائر !

وموجز القول أن الإعراب والإنشاء متعارضان كل التعارض وأن

هذه المباحث العويصة وأنك فى حاجة إلى التمرين - قبل كل شىء - وأن التدريب وحده هو خير الطرق لتعويدك المشى ، وحسبك إذا شئت - أن تعرف أسماء العضل الرئيسى فى الساق تاركا بقية التفاصيل إلى الأطباء المختصين .

ولقد تعلم الناس المشى - منذ آلاف السنين - قبل أن يعرفوا أسماء هذه العضل ، ولم يكلفهم ذلك أكثر من محاكاة غيرهم وتقليدهم فى ذلك .

واعلم ياولدى أن المشى والكلام والكتابة غاية فى اليسر ، وأن كلا من هذه الأشياء الثلاثة لا يكتسب بغير المرانة ، وأن على هذه المرانة وحدها يتوقف سر النجاح فيها جميعاً .

إن فى هذه الكتب - التى يضعها مؤلفوها لتعليم الانشاء - كثيراً من العجائب إن لم أقل السخافات ، مثال ذلك :

اكتب ثلاث جمل فى كل منها فعل يتعدى إلى مفعولين أو ثلاثة مفاعيل أو نحو ذلك ، أنشئ ست جمل مبتدأة أولاها بحرف ألف وثانيتها بحرف باء الخ .

هذا نظام غير طبيعى وهو نوع من التمارين الانشائية المتكلفة التى لا تنطبق على حاجتنا فى أداء أغراضنا ومعانينا فى الحياة العملية ، فإن أول شرط فى الكتابة أن تكون طبيعية كالكلام والمشى ، ولاجرم أن الانسان - إذا تكلم أو كتب - لا يُعنى بأمثال هذه السفاسف ، وهو لا يتكلم - أو يكتب - إلا معبراً عما يدور بخلده من المعانى والأغراض ، ومن ثم تواتيه الكلمات والجمل - عفو الخاطر - حتى يتم موضوعه دون أن يحفل مطلقاً بجعل هذه الجملة قصيرة أو طويلة ، فيها أفعال تتعدى الى مفعول واحد أو ثلاثة مفاعيل ، مبتدأة بحرف جيم أو حرف زاى ، الى آخر هذه الصغائر !

وموجز القول أن الإعراب والإنشاء متعارضان كل التعارض وأن

نظام هذا وطبيعته مناقضة كل المناقضة لنظام ذلك وطبيعته .

فعمل الإعراب هو تفكيك الجملة - بعد أن وجدت - وعمل الإنشاء هو خلق تلك الجملة قبل أن توجد . هذا يفهمك مواقع الكلمات ووظيفتها فيفكك أوصال الجمل الوصول الى غرضك ، وذلك يعلمك كيف تنشىء الجمل إنشاء من العدم لتؤدى المعانى المطلوب أداؤها منك . هذا هدم وذاك بناء . أو - بعبارة أخرى - هذا يمثل الفناء وذاك يمثل الخلق .

واعلم أنك - إذا عنيت بالنحو والإعراب وما اليهما وشغلت نفسك بمراعاة مواقع الفاعل والمفعول ونحو ذلك من كل جملة أثناء الكتابة - التوى عليك القصد وفسد المعنى وجاءت كتابتك آية من من آيات المسخ والتكلف والتشويه ، ووقفت تلك القواعد - التى تحسبها معينة لك - عقبة كأداء فى سبيل نجاحك وتفوقك فى الإنشاء . »

الطالب : « شد ما أدهشتنى ياسيدى الأستاذ ! لقد كنت - إلى هذه اللحظة - أرى فى قواعد النحو والصرف أكبر معين لى على إدراك طلبتى ! »

المدرس : « إنك إذا أتقنت النحو والصرف وصلت الى نتيجة أخرى ، وهى تعرّف صحة الجمل وتمييز الخطأ والصواب فيما تقرأه من الكلام . ولكن هذا كله لايفيدك فى تنظيم أغراضك ولا يعدل من طريقة تفكيرك وكتابتك : بل أنا أقول لك : إن انشغال بالك بالنحو والصرف وانصرافك إلى التفكير فيهما - أثناء الكتابة - قد يضر انك أشد الضرر ، وربما جعلاك حذرا خائفاً تتوقع الخطأ فى كل جملة تكتبها أو تقولها . »

الطالب : - « إذن يجدر بى أن ألقى بكتب النحو والصرف ، وأن أركن إلى نفسى مادمت فى غير حاجة اليها ! »

المدرس : « إنك — إن فعلت ذلك — ارتكبت أشنع الخطأ ، فان لهذه الكتب فائدة كبيرة ، وحاجتك إليها شديدة — على شرط أن تستعملها في مكانها ووقتها الملائمين — ، ولكن هذه الكتب — بعد ذلك — لا تجدى فى الإنشاء ، ولا علاقة لها بضعفك أو تفوقك فى هذا الفن ، لأن النحو شىء والإنشاء شىء آخر ! »

* * *

الطالب — « فبماذا إذن أسترشد وبأى دليل أهتدى للوصول إلى غايتى فى فن الانشاء ؟ »

المدرس « ليس لك إلا مرشد واحد : هو انتهاج طريق الكتاب الممتازين والإكثار من مطالعة كتاباتهم ، وتفهم أساليبهم الرصين وعباراتهم الرشيقة. أمامك رجال الفكر العربى وأساطين الكتاب الممتازين — فى مختلف العصور — فاقرأ كلامهم واستوعب كتاباتهم فإنك بذلك واصل الى بغيتك »

الطالب : « ألا يتفضل سيدى الأستاذ بذكر نخبة يختارها لى من أقوال الكتاب الذين يعنيهم ؟ »

المدرس — « إنهم كثيرون وإنى أذكر لك من هؤلاء الكتاب — على سبيل المثال — ابن المقفع وأبا الفرج الاصبهانى وعلى بن عبد العزيز الجرجانى وعبد الحميد كما أذكر لك خطب الحجاج وزياد ؛ وأحب ألا تفوتك تلك المحاورات الشائقة التى دارت بين على بن أبى طالب وعثمان بن عفان ، ولا تلك المراسلات المعجبة التى دارت بين على ومعاوية ، فإن أمثال هذه الكتابات آية من آيات الدقة والاحكام ونموذج عال من نماذج الإبداع والافتنان !

ولا تنس قراءة كلام النابغين من كتاب عصرك الذين امتازوا بتوخى الدقة وحسن الأداء ومتانة الأسلوب . هذا إذا أردت التفوق فى الكتابة العربية ؛

فإذا وليت وجهك شطر الأدب الانجليزى وأردت التفوق فى الكتابة بالانجليزية ، فاقرأ من نوابغهم أمثال « ماكولى » و « فرود » و « كنج لك »

وجماع القول أن الوسيلة الوحيدة للتفوق فى الكتابة بأية لغة — أجنبية كانت أو قومية — هى الاطلاع الدائم على كتابة بلغاء تلك اللغة وقادة الفكر والبيان فيها ، ومحاكاة كتاباتهم بكل وسيلة ممكنة ! »

الطالب — : « وكيف أستطيع محاكاتهم فى كتاباتهم ؟ »

المدرس : « أما طريقة المحاكاة فسهلة هينة وهى — :

إذا عثرت على قطعة مختارة لمثل هؤلاء الكتاب الأفذاذ الذين ذكرتهم لك — مما يثير إعجابك — فاقرأها متأنياً فاحصا ، واكتب فى ورقة بيضاء أهم نقطها الجوهرية . ثم اترك القطعة التى قرأتها والورقة التى كتبتها — يوماً أو يومين — ثم عد إلى ورقتك التى كتبتها مسترشداً بها فى كتابة الموضوع من جديد — مفرغا قصارى جهدك فى تقليد عبارة الكاتب وأسلوبه .

ومتى انتهيت من ذلك فارجع الى أصل المقال وقارن بينه وبين ما كتبت ، وأصلح كل ما وقعت فيه من خطأ أو إهمال مما يؤدى الى اختلاف فى الأداء لا يتفق مع الدقة والاحكام اللذين رأيتهما فى الأصل .

عوّد نفسك ذلك التمرين مرتين أو ثلاثاً فى كل أسبوع ، فإنك قادر على الكتابة — بعد قليل من الزمن — بأسلوب رائع ! »

الطالب : « ولكنى — إن فعلت ذلك — كنت مقلداً ، وقد أجمع المفكرون على أن التقليد شر لا خير فيه ولا فائدة ترجى منه إلا الإملال ، ولا شك أن المنقول أقل روعة وبهاء من النموذج ! »

الأستاذ: « لا ريب أن الفن قائم على الابتكار وأن التقليد فيه لا يكون إلا شراً ، لأن كل صورة - مهما كانت جميلة - هي أقل بهاء وروعة من النموذج الذي أخذت عنه ولكن الناشئ الذي يتعلم ليس أمامه إلا طريق واحد للوصول إلى غرضه وهي أن يجعل همه الأول تقليد أساتيذ الفن الذي يتعلمه.

وهذه هي نفس الطريق التي سلكها « ستيفنسن » حين شرع يتعلم الكتابة - وستيفنسن - كما يعرفه قراء الانجليزية - منقطع النظير بين الكتاب الحديثين ، وقلما داناه كاتب من كتاب الانجليز في جمال أسلوبه ودقة عبارته وروعة بيانه .

وقد كان في أيام الدرس والتحصيل - وهو في جامعة « أدنبرج » - يقلد كتابة « ما كولي » شهراً ، ويسلك في تقليده تلك الطريقة التي شرحتها لك ، ثم يدع « ما كولي » - بعد ذلك - ويأخذ في تقليد كتابة « فرود » شهراً آخر وهكذا ، ولم يترك كاتباً من المشهورين إلا قلده ، حتى « كارليل » وأضرابه .

ولقد أدرك - بهذه الطريقة - التي كان يسميها « طريقة المواظبة على التقليد » كل ما يبغيه في فن الكتابة ، وقرر - في صراحة وجلاء - أن لهذه الطريقة عليه أكبر فضل ، وقد عزا إليها كل ما في أسلوبه من قوة ورصانة وميزات باهرة لا تزال موضع إعجاب قارئيه إلى اليوم .

كذلك كان « فيكتور هيجو » يقلد في أول نشأته « شاتوبريان » الكاتب الفرنسي العظيم ، حتى كتب على مقعده في الفصل - وهو طالب - : « أريد أن أكون « شاتوبريان » آخر ! »

وليس التقليد عيباً في المرحلة الأولى من التعليم فإن لكل طالب أستاذاً يراه الطالب محل إعجابه كما يراه نموذجاً جديراً بالتقليد والمحاكاة . ولقد كان

أبونواس فى صباه يعجب بوالبة بن الحباب ، كما كان البحترى يعجب بأبى تمام ويقلده فى صغره ، وقلد أبو العلاء المتنبى فى حداثته أيضاً .

فإذا شئت أن تتعرف منى الوسيلة الوحيدة التى تبلغ بها مأربك فى فن الانشاء فليس لى ما أقوله لك إلا هذه الكلمة :

« التقليد ! التقليد ! التقليد ! »

أفهمت الآن ياولدى ؟ عليك بالتقليد وأنا الزعيم لك بأنك واصل الى ما تريد . »

الطالب — وقد بدت على وجهه دلائل الارتباك — : « إذن فما فائدة كل هذه الكتب المؤلفة فى فن الانشاء ؟ وما فائدة الكتاب الذى ألفته أنت فى فن الإنشاء ؟ أأتبع هذا الكتاب أم أتبع البلغاء من الكتاب الممتازين الذين ذكرتهم لى الآن ؟ »

الأستاذ — : « لقد أحسنت ياولدى فى هذا السؤال ويجدر بى أن أصارحك القول ، وأن لا أكتمك شيئاً . فإننى أرى وأنا على يقين مما أراه أنك — إذا استطعت أن تسلك الخطة التى شرحتها لك وأوصيتك باتباعها — ثم ثابرت عليها دائباً ، كان ذلك — بلاريب — أنفع لك من كل ما كتبه المؤلفون من الكتب فى فن الإنشاء الى اليوم .

بل أنا أقرر لك ماهو أغرب من ذلك . فإنى أعتقد أن المعلم — فى المرحلة الأولى التى تبدأ فيها قدرة الطفل على الكتابة — إذا عنى بتمرين طفله على كتابة جملتين اثنتين فى كل يوم ، إحداهما مما يذكره من الدرس الذى طالعه ، والأخرى مما رآه أوعمله فى يومه من الأعمال . أقول لك واثقاً إن المعلم — لوسلك مع الطفل هذه الطريق — لم يلبث الطفل أن يصبح قادراً على الكتابة بطبعه دون تكلف ، وتصبح الكتابة عنده

طبيعية كالكلام — سواء بسواء ! — ومن ثم لا يصبح الانشاء فناً كما يريد الأساتيذ أن يمثلوه ، بل يصبح طبيعة أخرى كطبيعة الأكل والتنفس والجرى ، فيكتب الطالب كما يتكلم ويأكل ويتنفس ويجرى سواء بسواء ! »

* * *

الطالب — كل ما تقوله حسن ياسيدى الأستاذ ، فما فائدة هذا الكتاب الذى ألفته فى فن الانشاء ؟

الأستاذ — أردت بذلك أن أسد الفراغ الذى يشعر به طالب ناشىء مر بهذا الدور من التعليم ورأى عقم الطريقة التى يسلكونها معه للوصول الى الدرجة العالية التى ينشدها فى فن الانشاء .

أردت — بهذا الكتاب — أن أضع للطلاب كتاباً يعلمهم الإنشاء بأسلوب جديد فى التربية ، يخالف ذلك الأسلوب العقيم الذى ألفه مدرسو الإنشاء ومؤلفو الكتب فى هذا الفن .

أردت أن أسلك بالناشىء منهجاً مجديا نافعا ، فلم أملأ رأسه بالقواعد النحوية والصرفية والبيانية وما الى ذلك من الفنون التى لا تجديه فى التفوق فى الإنشاء ولا تغنيه أى غناء !

فإذا أردت أن تعرف فائدة هذا الكتاب ، فليس لى ما أقوله لك أكثر من أنه كتاب جمعت فيه عدداً كبيراً من التمارين المختلفة لتدريب الطالب على الكتابة — أو بعبارة أدنى الى فهمك — انى هيأت فى هذا الكتاب المواد الأولى التى لا غناء لمن يريد الكتابة عنها ، كما تهيأ مواد البناء الأولية لمن يريد البناء . فلا بد من التمرين لمن يريد أن يتعلم هذا الفن ، كما لا بد من

الأحجار والملاط وما إلى ذلك لمن يريد بناء بيت .

لهذا عنيت بالتمرين كل العناية ، وأكثرت منه كل الإكثار !

فليس لمدرس الانشاء بد من أن يدرب تلاميذه على خلق الجمل مرة وتحويرها مرة أخرى . وهذا مافعلته ، وقد عنيت بالإكثار من التمارين على استعمال الكلمات فى مواضعها الحقة وبمعناها الصحيح ، وفى هذا تدريب على تنظيم التفكير عند الناشىء أيضاً

وقد بذلت وسعى فى تعويد الطالب الدقة فى الأداء ، وتدريبه على نثر الشعر ، الى آخر هذه التمارين النافعة ! »

الطالب ـ : « نثر الشعر ! ماذا تعنيه بهذه الكلمة ياسيدى الأستاذ ؟

إننى بحاجة الى كثير من الإيضاح . فقد كنت ـ ومازلت ـ أسمع أن هذا النوع من التمارين قليل الخطر ، إن لم أقل إنه عقيم لافائدة منه بتاتاً ! »

الأستاذ : « هذا رأى خاطىء ، فليست تلك التمارين بمثل هذا الحد الذى يصفونها به من العقم ، وليست تخلو من فائدة للطالب ! »

الطالب : « وأية فائدة يجنيها الطالب من مثل هذه المحاولات ؟ »

الأستاذ ـ : « إنها تعينه على ادخار محصول لغوى وفير ، من المفردات والجمل معاً ؛ ولولاها لتضاءل محصوله واضمحل وربما تلاشى ، وهذه التمارين تعين الناشىء على استعمال مافى رأسه من الكلمات واجترارها اجتراراً

واعلم أن المرانة والتطبيق والعمل ، يتوقف عليها وحدها كل شروط الحياة ، ولا سبيل الى تنمية ثروة مهملة ، إلا أن تستعملها ، ولن نزيد ماتملكه إلا اذا استعملناه ، وإلا تلاشى تلاشيا !

ولقد قالوا فى أمثالهم : « الحاجة تفتق الحيلة »

وقالوا : « كلما اشتدت الحاجة كان ذلك داعياً للاضطلاع بجلائل الأعمال ! »

الطالب : « ولكن ألا ترى ياسيدى الأستاذ أن من الخطل - إن لم أقل من الحماقة - أن نستبدل شعراً جميلا بنثر ردىء، وأن نحول نظماً رائعاً إلى كلام منثور ركيك ؟ وماذا تقول فيمن يعمد إلى مقطوعة نظمية لمؤلف كبير خبير بدقائق المعانى ومرامى الأسلوب وقوة الصياغة وتخير العبارة ، فيمسخها مسخاً ويشوهها تشويهاً ، ويحيلها الى كلام سخيف مفكك الأسلوب ضعيف المعنى ؟ »

الأستاذ - « الحق معك فى هذه النقطة وحدها ، ولكن فائدة هذا العمل - رغم ذلك - لايستطيع منصف أن يغفلها ! »

الطالب - « أية فائدة نجنيها من المسخ والتشويه ؟ »

الأستاذ « إنك - حين تتصدى لحل الشعر - إنما تبرهن لأستاذك - ولنفسك أيضاً - أنك قد فهمت معنى القصيدة أو المقطوعة فهما، واستوعبتها استيعاباً .

هذا إلى أنك تنمى بذلك محصولك اللغوى وتمرن نفسك على استعمال كلمات جديدة فيزيد بذلك محصولك اللغوى أيضاً . »

الطالب « هذا حق ، ولكنى أسمع أن فى هذه الطريقة عيوباومآخذ يجب أن يتجنبها الطالب ! »

الأستاذ « لاجرم أن هناك كثيراً من العيوب ، فإن لكل طريقة عيوباومحاسن ، على أن أكبر عيب فى هذه الطريقة يقع فيه الطالب ويجدر به أن يبذل كل مافى وسعه لتلافيه ، هو ما يسمونه « الحرفية »

فالحرفية شر يجب تجنبه والفرار منه ، لأنها تسيء إلى صاحبها أبلغ إساءة، ومتى سلكها في حل الشعر، لم يجيء نثره عادياً معقولا، بل يصبح مشوها سخيفاً مفكك الأسلوب ضعيف الأداء . ذلك أن الحرفية تبعد الطالب عن التشبع بروح الأصل وتجعله يعني بالقشور — دون اللباب — ومن ثم لا نرى إلا جملا ركيكة لا تؤدي معنى واضحاً ، ولا شك أن التزام الحرفية — الذي يلجأ إليه الطالب حاسباً أنه يوصله إلى أبعد غايات الدقة — لا ينتج عنه دائماً إلا ضياع المعنى وتشويه العبارة وفقدان الدقة المنشودة . »

الطالب — : « وكيف نتقي خطر الحرفية »

الأستاذ — : « يجب أن يكون النثر معبراً عن الأصل الشعري — كما تعبر الترجمة عن روح الأصل — فإذا أردت حل الشعر ، وجب عليك أن تستوعب القطعة وتملأ بها شعاب نفسك ثم تبدأ في نثرها بما يلائم روحها

فشعر « ملتون » مثلا يجب ألا تنثره إلا في أسلوب يلائمه ويتناسب مع رصانته وجزالته .

وإذا نثرت شعر « تنيسون » وجب عليك أن تراعي في ذلك نُبل اللغة مع جمال الموسيقية الذي في الأصل . »

الطالب — : « وكيف أصل الى هذه الغاية ؟ »

الأستاذ — « أول ما يجدر بك أن تفعله للوصول إلى هذه الغاية هو أن تقرأ الأصل قراءة متفهم مستوعب ، لتتشبع بروحه ؛ وأن تقرأه — مرة ومرتين بصوت عال — قراءة من يحس ويشعر ويتأثر بمعانيه ويتذوق جماله بكل ما في نفسه من إحساس وشعور وذوق !

فإذا تم لك ذلك وجب عليك أن تحصر — في ذاكرتك — الفكرة الجوهرية

التى تنتظم القصيدة ـ أو المقطوعة ـ فإذا انتهيت من ذلك وضعته فى الأسلوب الذى تجده ماثلا فى ذهنك بما يواتيك من بيان ! »

الطالب ـ « ولكن ألا ترى بدا من أن نكتب بأسلوب جميل ؟ »

الأستاذ ـ : « لا بد من ذلك ياولدى ، ويجب عليك أن تبذل كل ما أوتيت من قوة وجهد فى تحسين الأسلوب وتجميل العبارة ، حتى تتناسب مع جمال الأصل . كما يجدر بأسلوبك أن يجمع بين الوضوح والرشاقة والجمال ، بحيث يعجب به كل من لم يطلع على الأصل !

وعليك أن تتجنب فى نثرك العبارات الشعرية والكلمات والجمل والأساليب التى اختص بها الشعر وحده ، فإن للشعر لغة وخصائص كثيرا ما تخالف لغة النثر وخصائصه .

ورب كلمة ـ هى فى قافية قصيدة آية من آيات الجمال والموسيقية ـ إذا وضعت فى جملة نثرية كانت آية من آيات فساد الذوق وضعف الأسلوب ! »

الطالب ـ « فما هو الغرض الأول الذى نجعله نصب أعيننا ، حين نتعلم الانشاء؟ وما هى الغاية الحقيقية التى نتطلع اليها من دراسة هذا الفن ؟ »

الأستاذ ـ « يجب أن ترمى إلى أمرين ، إلى أمرين فقط ، الوضوح وحسن الصياغة ! وهذان الغرضان من اليسير على أى طالب ، ذى كفاية متوسطة أن يصل اليهما ، إذا عنى بهما عناية خاصة ومرن نفسه على بلوغ هذه الغاية !

فإذا كنت ممن وهبه الله بلاغة ، وقدرة على الافتنان فى الأسلوب ، والتصرف بفنون القول ، نلت أعلى منزلة فى الكتابة ، على أنك ـ إذا لم يساعدك طبعك ـ وأردت أن تكون رشيق التعبير رائع البيان ، فلن تصل إلى تلك المنزلة مهما بذلت من جهد فى الدرس والتحصيل ! »

الطالب — : « ولكن من المؤكد أن فى استطاعة كل إنسان أن يكتب بوضوح وأن يكون أداؤه حسناً ؟ فقد يظهر أن ذلك طبيعى جداً ؟ »

الأستاذ — : « ليس من السهولة بحيث تظن يا ولدى . فليس من الهين أن يكتب الإنسان كتابة واضحة حسنة الأداء .

لقد أصبح عصرنا حافلا بالكتب والصحف والمجلات وأصبح إقبال المتعلمين على القراءة يفوق كل وصف ، وكثيراً ما تزدحم أذهان الشباب بما قرأوه — مما لم يستوعبوه جيداً — فإذا حاول أحدهم أن يؤدى لك فكرة أداها مضطربة مشوشة لا سبيل إلى أن تفهمها لأنه هو نفسه لم يفهمها حق الفهم ! ، وليس لهذا من دواء إلا أن يعنى الناشئ بتفهم ما يقرأه واستيعابه . حتى لا تزدحم فى ذهنه صور شتى من المعانى مضطربة متناقضة ! والخير للانسان أن يقرأ كتابا واحدا وأن يفهمه حق الفهم ، من أن يقرأ ألف كتاب قراءة عجلى لا تمكنه من استيعاب شىء مما قرأ .

واعلم أن القراءة — كالغذاء — يجب أن يلائم صاحبه وأن لا يزيد عن حاجة معدته ، وإلا أصبح شرا عليه !

على أننى لا أريد أن أختم نصيحتى إليك ، دون أن أشير إلى طريق سهلة تصل بها — إذا سلكتها — إلى الدقة ، وتكون لك خير مرانة على الكتابة ، وهى الترجمة إن كنت تعرف لغة أجنبية . »

الطالب — « كيف تشير على بالترجمة ، وقد سمعت الكثيرين يعيبون هذه الطريقة ويقررون — تقرير المستيقن الجازم — أن الترجمة تضر أكثر مما تنفع ، وأن خير الطرق لتعلم لغة هو تعلمها رأساً من غير وساطة الترجمة ! »

الأستاذ — : « لأنصار هذا المذهب كل الحق فيما يقولون ، وأنا أدين بهذا

الرأى أيضا ، و يخيل إلى أنك لم تفهمه على وجهه الصحيح !

إن الترجمة لا تنفعك – بل تضرك – إذا حاولت أن تتعلم لغة أجنبية عن طريقها، لأنك تضطر إلى اصطناع أساليب لغتك التى ألفتها فيما تترجمه ، فتفسد بذلك كتابتك !

وعلى العكس من ذلك ، إذا أردت أن تترجم من لغة أجنبية إلى لغتك العربية فإنك تكتسب بذلك فوائد جمة . متى ابتعدت عن خطر الترجمة الحرفية!

وإنى أوجز لك فوائد الترجمة فيما يلى :

(١) أنها تطلعك على معان جديدة وطرق فى الأداء جديدة .

(٢) أنها تدربك على البحث عما يؤدى هذه المعانى من العبارات التى تلائمها.

(٣) أنها تعودك الدقة والإحكام فى التعبير .

وحسبك بهذه الفوائد مغريا لك ومنشطاً ، ولا تنس أن الترجمة إلى لغتك القومية ، تشبه – من وجوه كثيرة – الطريقة التى اقترحتها عليك من قبل ، وهى طريقة حل الشعر . كما أنها تشبه ما طلبته إليك ، من صوغ ما تقرأه من كلام البلغاء الممتازين فى لغتك ، فى أسلوب يتناسب مع جماله ودقته وحسن أدائه ! »

الطالب – : « ألا يتفضل على سيدى الأستاذ بإرشادى إلى قطعة بعينها من كلام البلغاء ، أتخذها نموذجاً أحتذيه وأنسج على منواله ؟ »

الأستاذ – : « حاول جهدك أن تقلد القطعة التالية مثلا – بعد أن تستوعبها قراءة وفهماً – وهى لأشهر كتاب العربية « ابن المقفع » ويجدر بك أن تتبع فى محاكاتها الطريقة التى أسلفت لك شرحها . وإليك القطعة المنثورة : –

« زعموا أن ناسكا كان يجرى عليه من بيت رجل تاجر فى كل يوم

رزق من السمن والعسل ، وكان يأكل منه قوته وحاجته ويرفع الباقي ، ويجعله في جرة فيعلقها في وتد في ناحية البيت حتى امتلأت ، فبينما الناسك ذات يوم — مستلقياً على ظهره والعكازة في يده والجرة معلقة على رأسه — تفكر في غلاء السمن والعسل فقال :

« سأبيع ما في هذه الجرة بدينار وأشترى به عشرة أعنز ، فيحبلن ويلدن في كل خمسة أشهر بطنا ، ولا تلبث إلا قليلا حتى تصير غنما كثيرة إذا ولدت أولادها »

ثم حرر على هذا النحو بسنين ، فوجد ذلك أكثر من أربعمائة عنز ، فقال :

« أنا أشترى بها مائة من البقر ، بكل أربعة أعنز ثورا أو بقرة ؛ وأشترى أرضا وبذورا ، وأستأجر أكرة[1] وأزرع على الثيران وأنتفع بألبان الإناث ونتاجها . فلا يأتي على خمس سنين إلا وقد أصبت من الزرع مالا كثيرا ، فأبني بيتا فاخرا وأشترى إماء وعبيدا ، وأتزوج امرأة جميلة ذات حسن . ثم تأتي بغلام سرى نجيب فأختار له أحسن الأسماء ، فإذا ترعرع أدبته وأحسنت تأديبه ، وأشدد عليه في ذلك . فإن يقبل مني ، وإلا ضربته بهذه العكازة . »

وأشار بيده إلى الجرة فكسرها ، فسال ما كان فيها على وجهه !

(١) حراثين (جمع أكار)